الفصل الأول

رسالة الشُّعراء

obeikandl.com

obeikandl.com

ما هو «الشِّعْر» الذي نريده؟

ومَنْ هو «الشَّاعر» الذي نراهِن عليه؟

وما هي رسالته في الحياة .. أوْ ما هي الرسالة المنوطة به؟

وما هي الصفات التي ينبغي أن تتوافر فيه حتى يكون أهلاً لحمل تَبِعات هذه الرسالة؟!

(الشِّعر) هو الثورة العارمة على العادات الراكدة، والتقاليد الوافدة، والجهل والغش والخداع والفوضى، ومخلَّفات عصور الاستبداد والظلم والانحطاط.

(الشِّعر) هو «العصا» التي يمسك بها الشَّاعر، ليسوق الطغاة إلى سواء السبيل!

(الشِّعر) هو الغِنَاء الحار للبطولة .. لأنه وقود الثائرين، ونشيد المجاهدين.

أمَّا (الشَّاعر) فهو جزء من أهم أجزاء المجتمع، أوْ هو بمثابة الرأس من الجسد، لأنه الجزء المُعَوَّل عليه في كل الحركات العامة، والمُمَهِّد لكل الإصلاحات الاجتماعية والفكرية. وإذا تحدثنا عن الشَّاعر؛ فإننا نتحدث عن المفكِّر الذي يؤمن بأنَّ له رسالة، ويعرف كيف يؤدي هذه الرسالة كاملة لخدمة قضايا أمته .. وتتفاوت درجات الشّعراء ومنازلهم الفكرية والأدبية بمقدار ما يُسهِمون في تقدم الإنسانية ورفع الإصْر عنها، والعمل على سعادتها.

لذا؛ فإنَّ هناك فنوناً عالمية، وأخرى محلية أوْ إقليمية. فنون خالدة باقية، وأخرى وقتية زائلة، وفنون رفيعة راقية، وأخرى ضحلة تافهة .. ولعلَّ السبب الأساسي في ذلك التفاوت يرجع إلى القيمة الوظيفية للعمل الأدبي ومدى ما يحققه من أهداف .. فالعمل الذي يحقق جميع أهداف الفن –أو معظمها– لابدّ أن يكون أرقى وأرفع من الذي يحقق قليلاً منها، أمَّا الذي لا يحقق شيئاً منها، فهو خارج محراب الفن والأدب.

وقد نال الحديث عن الوظيفة القيمية للفن والأدب والشِّعر حظاً واسعاً من

تنظيرات الأدباء والنقّاد، ولعلَّ أدقّها وصفاً هو ما ذهب إليه الدكتور يوسف عز الدين، الذي شَبَّه الأدب بجسم الإنسان الذي يتقلَّب بين الصحة والمرض، وما قد يترتب على ذلك من أسباب ونتائج، فيقول: «الأدب كالجسم البشري فإذا ظهر عليه المرض، فمعنى ذلك أن الأُمَّة عمّها المرض، وأن الأديب لا يستطيع أن ينتج إنتاجاً سليماً. وبقاء الأدب في حالة واحدة والسير على منوال مكرَّر معناه انحراف الحالة الفكرية، ويكون الانحراف عادة في الأدب أوْ الموضوعات التي يعالجها، وكما تختل وظائف الجسم تختل وظائف الأدب وتظهر عليه الأعراض المرضية، فيبعد عن الفنية وخدمة المجتمع ويصبح مفكك الأسلوب، وقد تأتي هذه الأمراض من طبيعة الفنان نفسه أوْ الأُمة ذاتها، فالأديب الضعيف الثقافة المحدود الفكر الضيق الأفق يأتي إنتاجه مثلاً صادقاً لهذا الضعف. والأُمَّة عندما تتقهقر وتتأخر فكرياً وحضارياً يظهر هذا الضعف في أدبها فتعتمد على الاجترار، لأنها لم تُغَذَّ غذاءً طبيعياً جديداً يزيد في صحتها ويجعل أدبها قوياً، ونقص الغذاء الروحي والفكري والابتعاد عن الفكر العالمي أهم مرض يصيب الأمم في أدبها، وكما يُصَاب الأدب بفقر فني؛ يُصَاب -أيضاً- بعسر الهضم عندما يأخذ المفكر الرأي دون فهم أوائله وعوامله ومسبباته ويهتم بمظهره دون أن يعرف مكوناته. ومن يفهم أصول الأدب وتاريخه فهو أديب مفكر، ومن يقدر على هضم الآراء الجديدة فهو أديب مثقف، أمّا الذي يقدر على هضمه وتمثيله ووضعه بأسلوب جديد تستفيد منه الأمة فهو العبقري. فكثير من الأدباء السطحيين يُقلِّدون أدباء الغرب المرضى والشواذ الطبع فانعكس كل هذا في شِعْرهم».

ولعلَّ هذا المعنى الذي قصده الدكتور «محمود ذهني» عندما تعرَّض للحديث عن إشكالية الأدب والحياة، إذْ يقول: «والأدب كما نفهمه، تفاعل وجداني بين الفنان والمتلقي، يسبقه تفاعل بين الفنان والمجتمع، وينتج عنه تفاعل بين المتلقِّي

والمجتمع، وهو بهذا الوضع ضرورة من ضروريات الحياة، يحتاج إليها الإنسان مثلما يحتاج إلى الغذاء والماء والهواء، وكلها تلعب دوراً هاماً في تكوين الصحة العضوية والجسدية للفرد، كذلك الآداب والفنون تلعب دوراً هاماً في تكوين الصحة الوجدانية والروحية. فإذا تناول أحد طعاماً فاسداً أو فاقداً قيمته الغذائية فإنه يمرض ويعتل ويصبح ضعيفاً في شخصه وغير نافع لمجتمعه، وإذا شرب أحد ماءً آسناً، أوْ استنشق هواء غير نقي مرض واعتلَّ وفقد القدرة على إعالة نفسه وإفادة مجتمعه .. كذلك الأدب والفن، إذا تلقى الناس ألواناً مزيفة ومدسوسة عليها، اختلّتْ صحتهم الوجدانية، واضطربتْ حياتهم الروحية، وأثّرتْ هذه العِلل على أنفسهم وعلى مجتمعهم، وكلما استشرى الداء، كلما عزَّ الدواء واستعصى العلاج».

فالأدب الحي، هو لسان عقل الجنس البشري، أوْ هو الذي يمنحنا القدرة على الانفعال به، ولو كان أسمى من مشاعرنا الخاصة، لأنه يستطيع أن يرفعنا إليه لحظات، وقد تكون هذه من مزايا الأدب التي تُحْسَب له في عالم «المنافع» إذا لم يكن بد من النظرة النفعية للفنون!

لذا؛ نجد كاتباً مثل «توفيق الحكيم» يصف مهمة الأديب ورسالته في الحياة وصفاً صحيحاً حين يقول: «لوْ يعلم الأديب خطورة فنِّه؛ لسكتَ دهراً قبل أنْ يكتب حرفاً».

كذلك، يقول صاحب رواية «مدام بوفري MADAME BOVARY»: «قرأتُ عشرة آلاف كتاب في مكتبة فرنسا الوطنية، كَيْ أستطيع أنْ أكتب أرضية هذه الرواية».

وَلِمَ لا؟ فالثورات الاجتماعية الكبرى قامت على أكتاف الأدباء والفنانين. والدعوات الإصلاحية اعتمدت كثيراً على الفن، ولاسيما الفن القولي.

فالأديب الكبير أوْ المتميز رائد من رواد البشرية، يسبق خطاها، وينير لها الطريق

فلا تنقطع بينه وبينها السبل! وهو رسول من رسل الحياة إلى الآخرين الذين لمْ يُمْنَحوا «حق الاتصال»! كما مُنِحَه ذاك الرسول، فهو يطّلع من خفايا الحياة على ما لا يطّلِع عليه الآخرون، وهو يحسّها في صميمها مجردة عن الملابسات الوقتية والحدود الزمنية، يحسّها كما انبثقت أول مرة من نبعها الأصيل.

ووظيفته أن يفتح المنافذ بيننا وبين هذا النبع بقدر ما نطيق .. وفي الأديب -كما يقول سيِّد قطب «قبس محدود من النبوة التي تتصل بالقوة الكبرى، وتصل بها القطيع الضال، وقيمة الأديب الكبرى إنما تقاس بمقدار اتصاله بالنبع من وراء الحواجز والسدود».

من هنا كان العمل الأدبي في حقيقته ثمرة «التجارب الشعورية» التي ترفع الإنسان فوق مستوى حياته العادية، والتي ترتفع فيها درجة الانفعال أيّاً كان نوعه حتى تصل إلى درجة التوهج والإشراق أوْ قريباً منهما.

الشِّعر خير تعبير عن اللحظات الأقوى والأملأ بالطاقة الشعورية في الحياة لأنه -كما يعرفه الشَّاعر الإنجليزي وليام وردزورث W.Word sworth «هو الفيض الاختياري للأحاسيس القوية، وهو ينبع من الانفعال الذي يستعيده الشاعر في هدوء، إذْ يطيل الروية فيما خلّف عنده الموضوع من انفعال، حتى يتجدد الثأر به في نفسه ويختفي الهدوء تدريجياً، وينشأ في العقل انفعال مشابه للأول أوْ قريب منه، وهنا يبدأ التأليف الشِّعْري الناجح، ويستمر في هذا الجو مصحوباً بحالة من الغبطة العقلية. وعلى الشّاعر أن يقلد الطبيعة في هذا، وأن ينقل المشاعر إلى القارئ حية سليمة، محوطة بهالة من اللذة والإمتاع، وأن يجعل من الوزن والقافية عاملَيْن جديديْن يضيفان ثروة إلى النشوة العقلية، ويخلعان على لغة الناس رواءً موسيقياً، ويلبسان العادي المألوف ثوب الجديد الطريف».

فمن أراد أن يكون أديباً أصيلاً ومُجدِّداً؛ يجب أن يعرف ما يأخذ من الآداب

الغربية وما يترك، فقد أصاب بعض الأدباء (هوس التجديد) فجاءوا بالجديد الذي ليس فيه أصالة فنية، وليس فيه أسلوب مشرق، وبعيد كل البعد عن الأساليب العربية .. لأن هذا «المُجدِّد» ليس لديه ذخيرة أدبية أصيلة، ولم يتزود بالتجارب الفكرية العميقة، وأضاع قابليته في المزاوجة الأدبية، ولمْ يراعِ الإخصاب الحضاري بين العرب والغرب لجدْب أدواته وضعف ثقافته!

إنَّ المشابهة الذهنية والتقارب الحضاري والمقابلة في التجارب ضرورية لإنتاج الأديب، ومتى وجدت مشابهة فكرية وتجارب متماثلة بين العرب والغرب فسوف يكون الأديب مجليا، وليس القلق الفكري والغموض الروحي والحيرة والنزعات المضطربة التي يجدها الأديب المعاصر في آداب الغرب كافية ليصور لنا فيها أدب الأمة العربية وما يعتريها من ضياع وحيرة وتناقضات في قضايا المجتمع وحاجات المصير.

من هنا؛ رأى الأدباء الكبار أنَّ الأدب العربي بحاجة إلى تغيير جذري في المضمون الفكري، وعليه أن يتخذ سُبلاً غير التي اتخذها خلال السنوات الماضية، وأن تكون فيه للكاتبِ شجاعة القائد وعزم الرائد، وأن يكون الأديب مفكراً خلاَّقاً لا يتزعزع أمام الأحداث ولا ينحني أمام الملمَّات، ويجب أن يكون بطلاً يخطّ تاريخاً فكرياً جديداً في إطار المقومات العربية والإسلامية، فقد سادت الحيرة النفسية والبلبلة الفكرية بين كثير من أدباء العرب.

ما هي رسالة الشَّاعر؟

(رسالة الشَّاعر) هي الرسالة التي يحملها الشِّعر الجميل الهادف البنَّاء في جميع أغراضه، وشتى مدارسه، باختلاف بيئاته وعصوره ولغاته .. إنه الشِّعر الذي إذا سمعته يهزّ أعماقك هزاً، أوْ الشِّعر الذي صار ناقوساً يدق في سمع الزمان .. لِمَا حمله من الحِكَم والأمثال. إنه الشِّعر الذي واجه الحكَّام الفاسدين وهجا الجبابرة

المُستبدين الذين أفسدوا في البلاد، وأورثوا شعوبهم الفقر والجهل والعار. إنه الشِّعر الذي تصدّى للأنظمة الديكتاتورية القمعية والفاشية والدموية في كل زمان ومكان.

إنه الشِّعر الذي عبّر عنه الدكتور/ **يوسف القرضاوي**- في قصيدته «**أنا والشِّعر**»:

أريدُ لهُ هجراً فيغلبني حُبِّي ... وأنوي، ولكن لا يطاوعني قلبي
وكيف أطيق الصبر عنه وإنما ... أرى الشّعر للوجدان كالماء للعُشْبِ
فكمْ شَدَّ من عزمٍ وبصَّر من عمى ... وأيقظ من نومٍ، وذلَّلَ من صعبِ

وبالرغم من أن الشيخ القرضاوي ترك الشِّعر وتفرغ للعمل الإسلامي، إلاّ أنه مازال يتابع مسيرته، ويشارك في ندواته ومؤتمراته، لأنه يرى أن الشِّعر ركيزة مهمة من ركائز الدعوة الإسلامية إذا كان للحق وحده، فيقول:

وقفتكَ يا شعري على الحق وحده ... فإنْ لمْ أنلْ إلاّهُ قلتُ لهم: حسبي!
وإنْ قال غِرٌّ: ثروتي، قلتُ: دعوتي ... وإنْ قال لي: حزبي، أقولُ له: ربي!
فَعِشْ كوكباً يا شِعرُ يهدي إلى العُلا ... وينقضُّ رجماً للشياطين كالشُّهُبِ

لقد آمن الشُّعراء الكبار بهذه المعاني السامية، واجتهدوا في تحقيقها في إبداعاتهم، كما أدركها النقاد والدارسون وسائر جماهير الشِّعر ... فكان الشِّعْر خير هاد، وأجمل مصوّر لمآثر الأمة وأحزانها ومشكلاتها .. فازدادتْ حِدَّة الشُّعراء، وتباروا في إيقاظ جذوة الوطنية في النفوس وكثرت الكتابة في كل ما يبعث الثقة بالنفوس، واستمدوا من التاريخ الإسلامي أروع أمثلة البطولات والجهاد وصاغوها حية ثائرة مساهمة في بعث الروح التي لم تصلها الثورة بعد .. فأبدعوا أطناناً من الشِّعر المناوئ لحُكّام الجور. وقد رأينا ألواناً من الشِّعر الذي زلزل الأرض تحت أقدام الفراعنة والجبابرة، وكشف خباياهم، وصار شاهداً عليهم! وسمعنا الشِّعر الذي أرّقَ الطغاة، وأقضّ

مضاجعهم. وبالتالي خرج الشَّاعر العربي من برجه العاجي، وأدار ظهره لقصور الحكام وامتنع عن عطاياهم، وَصَوَّبَ قذائفه تجاه قواعد الماركسية والرأسمالية والرجعية والاستعمار، ويَمَّمَ وجهه شطر الشعوب الغارقة في مشكلاتها، وجعلها مادة موضوعاته الأساسية، فازدادت صلته بحياة الشعوب، وتوطدت علاقته بالجماهير.

إذا كان الأدب صَدىً لمُثُل الشعب عامة وقِيَم الأُمة، وتعبيراً عن آمالها ورغباتها، فإنَّ الأدب الجديد الذي تطمح إليه نفوسنا هو الذي يحضّ على مناهضة الاستعمار وأعوانه، والدعوة إلى الوحدة العربية والإسلامية في إطار ثقافي جديد، وإلاَّ فسوف تجرفنا أمواج الحضارة الغربية الهادرة بعقائدها المادية والوثنية، فتضيع شخصيتنا القومية المتميزة، ويغدو العربي مسخاً غريباً، تائهاً بين الأُمم، ومُعلَّقاً بين السماء والأرض!

ينبغي -لذلك- أن يكون جميع الأدباء واضحي الرؤية، متآزري الهدف والغاية، وأن يضعوا مصيرهم مع مصير شعوبهم مدافعين عن أهدافهم وغاياتهم بحرية مطلقة، لا يسمعون الوساوس من خارج ضمائرهم، ولا يصغون لهمسات غير واقع المجتمع العربي وحاجاته، وأن يعملوا بعقلٍ واعٍ .. فلنْ تنفع -السريالية أوْ الرمزية أوْ الحداثة- ذاك الفدائي العربي في مسرح القتال والجهاد!

ويجب أن تكون لنا خصائصنا القومية حتى تنصهر العروبة والوطنية بالإسلام، إذْ إن الاعتماد على شعارات العروبة أوْ القومية وحدها لن تستطيع خلق ثقافة أصيلة قوية عالمية تشبع رغبات الجماهير المتعطشة إلى الحرية والثورة والعقيدة.

هذا هو ما دعا إليه عباقرة الإصلاح ورواد الفكر في القرن الماضي أمثال: الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، وشكيب أرسلان، وحسن البنَّا، ومحمد إقبال، ومالك بن نبي، وعباس العقاد، وعلال الفاسي،

وأبو الحسن الندوي، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد الغزالي، وأنور الجندي .. وغيرهم من المُصْلِحين.

إننا في حاجة إلى شعراء «غِلاظ شِداد» لكيْ يهدموا على الطغاة قصورهم، بلْ يقتلعوا «عائلة الطغيان» من جذورها، ولا يبقوا لهم أثراً ولا رِكْزاً.

بلْ إننا في أمس الحاجة إلى كتيبة من شعراء الجن والإنس العظام، يحملون أرواحهم على أكفّهم، ويتقدمون ركب الجياع والمظلومين والمستضعفين في الأرض، فيدكُّون أسوار الجبابرة والمستبدين، ويفتحون حصون الديكتاتورية والأنظمة الشمولية، ويطيحون بمعاقل الاستبداد، وسراديب الطغيان!

مهمّة الشَّاعر العصرية

مهمة الشَّاعر ورسالته في هذا العصر -بالذات- يجب أن تتحدَّد بوضوح شديد، ودون مواربة، لاسيما بعدما ظهرت الحقائق، وانكشفت الأوراق .. فقد احتُلَّت الأوطان، وسُلِبَتْ الثروات، ودُنِّستْ المُقدَّسات، وانتُهِكَتْ الحُرمات، وحَلَّ بالبلاد الفقر والجهل والخراب!

ماذا ينتظر الشَّاعر الغيور بعدما رأى الصهاينة أقاموا في قلب الوطن العربي ترسانة نووية هائلة أطلقوا عليها اسم (دولة إسرائيل)؟!

بلْ ماذا ينتظر بعدما رأى الصليبيين أقاموا قواعدهم العسكرية في أوطاننا شرقاً وغرباً؟!

أمّاذا ينتظر بعدما رأى السيخ والهندوس -عُبَّاد الحمير والبقر والكلاب- يفترسون المسلمين، ويعتدون على مساجدهم ومنازلهم وحرماتهم؟!

وما عساه أن يفعل بعدما صارت بلاده حقلاً للتجارب النووية، وعواصمه مسرحاً للعمليات العسكرية، ومقراً ومستقراً للقوات الغازية الأجنبية؟!

وماذا يرتجى بعدما غدتْ «فلسطين» مقبرة لسكانها الأصليين؟! وصارت مدينة

«القدس» تُبَاع في مزاد عالمي؟! و«المسجد الأقصى» يُقتلَع من جذوره؟!

***

الشَّاعر الحق، يجب أن يملك إرادته وأن يعي ما يريد ويفهم ما يقول ويعرف ما يخطط، وأن يسيطر بشعوره وبعقله على إنتاجه، وأن يضع فنه في خدمة أُمته.

ولن يكون الشَّاعر ناجحاً إلاَّ إذا درس المعركة الناشبة بيننا وبين العدو بكل وسائلها وتَفهَّم طرقه الملتوية وأساليبه الشيطانية وخططه الجهنمية.

ومتى كتب الأديب ما يوحيه الضمير، ويوجبه عليه الحق، فسوف يترجم عن أحاسيس الأُمة، ويترجم عن مشاعر البشرية كلها، ويحس بأنه مِلْكٌ للشعوب المحبة للسلام والعدل.

إننا ندعو الأدباء والشُّعراء عامة إلى وقفة صادقة مع النفس .. فإنَّ أمتنا باتتْ على خطرٍ داهم، بعدما اقتلعتها رياح الفلسفات الوضعية، وتقاذفتها أمواج المذاهب الغربية، وابتُلِيَت بحكَّام فاشلين، حتى صارت غنيمة باردة في أيدي الطامعين.

فالأدب عامة -والشِّعر على وجه الخصوص- ليس كلاماً منظوماً، أوْ سطوراً مرصوفة، وأوزاناً وقافية -كما يتوهم المتوهمون- كلاَّ .. وألف كلاَّ ..!

الأدب لابد أن يكون أولاً أدب مسؤوليات ضخمة تجاه الإنسانية -كما يرى سارتر- لدرجة أنه يعتبره مسؤولاً عن كل مظاهر الكبت والردع والتمرد والإرهاب والحروب بشتى أنواعها، لذلك يقول «سارتر» في وصفه لمهمة الأديب وللأدوات التي يستعملها: «إنَّ الكلمات مسدسات محشوة، وإذا تحدث الأديب فإنه إنما يطلق النار، حقاً لقد كان في وسعه أن يصمت، ولكن مادام قد اختار لنفسه أن يطلق النار، فإنَّ من واجبه أن يفعل هذا كرجل، بأن يصوّب نحو أهداف، لا كطفل يطلق النار كيفما اتفق، مغلقاً عينيه، مقتصراً على التلذذ بسماع أصوات الطلقات وهي تدوي من بعيد».

لعلَّ رأي سارتر هذا، يؤكد أن مسؤولية الأديب في إبداع عمله لا تقل في خطورتها عن مسؤولية الزعيم عندما يصدر قراره السياسي. إن مهمة الأديب هي العمل على تقديم العالم إلى الآخرين، بحيث لا يكون في وسع أحد بعد ذلك أن يتجاهل حريته، أوْ يتنكَّر لمسؤوليته، أوْ أن يزعم لنفسه أنه بريء من كل ما يحدث، وليس من المعقول مطلقاً أن يبدع الأديب عملاً ينادي بسيادة الاستعباد والظلم، أوْ يطالب بإقرار الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ، أوْ استغلال الإنسان لأخيه الإنسان!

فليس (الشَّاعر) هو سامر الحي، ولا ساقي المَلِك ونديمه.

وليس (الشِّعر) كؤوساً وأقداحاً لاستحضار البهجة والسرور، لا هذا، ولا ذاك!

إنَّما (الشَّاعر) هو المبدع الثائر، والفيلسوف الواعي، والمصلح الاجتماعي، والمجاهد في سبيل الحق والعدل .. والمحارب الذي لا تلين قناته، والفارس الذي لا يترجَّل!

والشِّعر –بمثابة– الرمح، والسيف، والرصاصة، والبندقية، والريح التي تقتلع البيوت والأشجار، والبركان الذي تتطاير منه الحِمَم! أوْ كما يقول عبد الرحمن العشماوي:

الشِّعر عندكَ جمرةٌ ورصاصةٌ ... في وجه تُجَّار الحروفِ ثورُ!

أوْ على حد قول نزار قباني:

الشِّعْر ليس حمامات نطيّرها ... نحو السماء ولا ناياً وريح صبا

لكنه غضبٌ طالتْ أظافرهُما ... أجبن الشِّعر إنْ لمْ يركب الغضبا!

لذا .. ينبغي أن تتحول جميع الهيئات الثقافية والمنتديات الأدبية إلى مشاعل هداية، ومنابر دعوة إلى خير وصلاح البلاد والعباد .. فلا قيمة للأدب ولا معنى للشِّعر إذا مات في بطون الشُّعراء، أوْ أُنشِد في حجرات مغلقة، أوْ نُشِر في مطبوعات

رديئة لا يسمع عنها أحد، إنما لابد أن تمتد أشعته إلى جميع أرجاء الوطن، وأن تتغلغل رسائله إلى كل شرائح المجتمع، كما كان في عصوره الذهبية السالفة.

من ثمَّ؛ فإنه ينبغي على المؤسسات الأدبية أن تجتهد في تكتيل كل المثقفين تحت لوائها، ليقفوا في جبهة واحدة وصف واحد كالبنيان المرصوص لنصرة قضايانا المصيرية وتحرير أوطاننا، وصد التيارات والفلسفات الغازية لديارنا، والقوى المعادية لأمتنا.

لن يتسنَّى هذا المطلب، ولن تتحقق هذه الغاية إلاَّ إذا كان دور هذه الجمعيات الأدبية إيجابياً فيما بينها، بمعنى أن ترسي فيما بينها قاعدة التسامح والتعاون والمشاركة .. فإنَّ أية رابطة ثقافية أو جمعية أدبية تخطئ خطأً كبيراً إذا اعتقدت أن بإمكانها وحدها أن تحمل عبء نهضة المجتمع ثقافياً أوْ تهذيبه علمياً أوْ تعبئته فكرياً أوْ توجيهه حضارياً. بلْ الواجب على كافة الجمعيات الأدبية أن تخلص الولاء لوطنها وأمتها، وأن تتعاون وتتكاتف في صد رياح المذاهب الوافدة والهجمات المغرضة على لغتنا وثقافتنا وهويتنا.

فالأدباء المبدعون والشعراء قادرون –بالتعاون والتحاور– على قيادة المجتمع إلى بر الأمان، ومرفأ النجاة، وانتشاله إلى شاطئ السلامة.

بل ينبغي على الأدباء والشُّعراء السعي إلى تكوين رأي عام عربي وإسلامي يمثل القاعدة الجماهيرية العريضة من الشعوب التي هي منوط بها تحرير الأوطان المغتصَبة، واسترداد الكرامة المهدرة.

ليس هذا فحسب، بلْ إنَّ واجب الأدباء والشّعراء تهيئة مناخ عام عالمي، يؤمن بوجود الأُمَّة العربية الإسلامية وبعدالة قضاياها وأهمية رسالتها الحضارية بين الأمم. وتحرير «الآخر» من العُقَد المزمنة والأكاذيب التي علقتْ بذهنه منذ العصور الوسطى، والتصدّي للحملات الإعلامية الصهيونية ... لابد من تهيئة رأي عام

يفسح صدره لعودة الحق إلى أهله، وظهور القوة الإسلامية بجوار القوى العالمية الأخرى، مدركاً أن من حق العرب والمسلمين أن يحكموا أنفسهم وفق عقيدتهم، باعتبارهم أغلبية في بلادهم، كما تنادي بذلك مبادئهم الديمقراطية التي يتغنَّون بها، وأن من حقهم أن يدعوا إلى رسالتهم الإنسانية العالمية، باعتبارها إحدى الديانات الكبرى في العالم التي لها ماض وحاضر ومستقبل، ويدين بها أكثر من مليار ونصف المليار مسلم على ظهر الأرض.

على الأدباء والنقاد أن يوجهوا المبدعين إلى هذه الموضوعات الساخنة وذات الأهمية، ويدفعوهم إليها دفعاً، فما أحرى بالمبدعين -في هذا الوقت بالذات- أن يُخرِجوا الأُمة من حالة اليأس والإحباط التي خيّمت على كاهلها، ونسجت على عاتقها، وأن يوقظوا النائمين، وينبهوا الغافلين، ويرشدوا الضالين من أبنائها ... ويذكِّروهم بالخيرية التي منحها الله لهم، والنصر القريب الذي سيكون حليفهم إذا هم أخذوا بأسبابه.

إنَّ من أهم واجبات الأدباء والشُّعراء -في هذا الوقت بالذات- الدعوة والعمل من أجل استخلاص الحُكْم من أيدي الحكَّام الضعفاء والخونة العملاء، ليوضَع في أيدي الرجال الأقوياء والمناضلين الشرفاء .. الذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادا، الذين يُصلِحون ولا يفسدون، الذين يجوعون ليُشبِعوا بطون الرعية.

وعلى المبدعين والشّعراء الإسهام في علاج أمراض الأمة المزمنة كالجهل والفقر والمرض والتسول وسائر الرذائل والأمراض الاجتماعية، كما رأيتا في أشعار: إقبال، والبارودي، وشوقي، وحافظ، وأحمد محرم، وغيرهم.

كذلك -المبدعون- مطالبون بالدعوة والتحريض لتحرير الأراضي المحتلة والأوطان السليبة والمقدسات الأسيرة، ومجابهة قوى البغي ومناوأة الاستعمار وتثبيطه وكسر إرادته.

بلْ إنَّ من أولى واجبات الرسالة المنوط بها الأديب المبدع أوْ الشاعر أن يدعو إلى نشر الإسلام وشرح تعاليمه ووصاياه وذكر محاسنه وفضائله، والذود عن حياضه، ورد الشبهات والافتراءات والمغالطات التي تلصق به -كما فعل شعراء الرسول ﷺ في فجر الإسلام.

إننا نرجو من كتائب شعراء العروبة والإسلام أن تعتبر نفسها مرابطة في سبيل الحق والعدل، ومجنَّدة لكل قضية عربية وإسلامية، بلْ من الواجب عليها أن تعمل على تجنيد مسلمي العالم وراء قضية فلسطين-بالذات كما جنَّدت الحركة الصهيونية يهود العالم وراء أكذوبة «أرض الميعاد»! بلْ عليها أن تجنِّد كل ذي ضمير في العالم لمساندة قضايانا العادلة.

ميادين الإبداع الأدبي

إنَّ أمام أدبائنا وشعرائنا مجالات رحبة فسيحة، لم يطرقها من قبل إنسٌ ولا جان، لكنها في حاجة إلى ريشة الفنان العبقري ليغوص في أعماقها، ويسبر أغوارها، حتى يقف على الحقائق الكبرى.

فما أكثر مجالات الإبداع وما أوسع ميادينه، وما أكثر القضايا الساخنة التي فرضت نفسها بقوة في الوقت الحاضر بالذات، خاصة بعد الهيمنة الغربية على العالم العربي والإسلامي .. فمنذ أكثر من قرن من الزمان؛ لمْ يشاهد الشَّاعر المسلم إلاَّ هزائم ونكسات تترى، وأعمال خيانة وغدر، وشماتة الأعداء، وسلسلة من المهانة والذل بأيدي الحُكَّام الأجانب، وأتباع الاستعمار وربائبهم وإخوانهم في «الرضاعة»!

لمْ يشاهد الشَّاعر -منذ ذلك الحين- إلاَّ النكسات المتعاقبة التي تُوِّجَتْ بسقوط الخلافة الإسلامية، ثم سقوط العواصم العربية والإسلامية الواحدة تلو الأخرى غنيمة باردة بأيدي الاستعمار الذي حسمها بزرع الكيان الصهيوني «إسرائيل» في

قلب العالم العربي!

لمْ يشاهد الشَّاعر -خلال تلك الحقبة الكريهة من الزمن- سوى غارات متتالية على بلاده وأمته، ومجازر بشرية هنا وهناك، واعتداءات سافرة على الإسلام وشريعته، وهو في تلك الأثناء مُكَمَّم الفم، مكتوف اليديْن، يواجه التشريد من الأوطان والإقصاء التعسفي من داره أوْ عمله، ويُحَمَّل المسئولية عما فعله السفهاء من قومه، فجاشتْ قريحة الشَّاعر، وفاضتْ عاطفته بالحنين إلى وطنه السليب، كما جادتْ قريحته بالتعبير عن آلامه وأحزانه .. لأنه واجه الحرمان بدرجاته، وواجه القيود بأنواعها، وواجه المهازل بأشكالها. كما واجه التشريد من الوطن قسراً مرات ومرات .. ففاضتْ قريحته في تصوير هذه المآسي التي تكاد السماوات يتفطرنَّ منها، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدًّا .. إنه رأى إخوانه يُشرَّدون من خيامهم، بعدما شُرِّدوا من أوطانهم، وقد تسلَّط عليهم العدو المغتصب الذي لا يمتُّ إلى ذلك البلد بصلة من قريب أو بعيد!

إنه يسمع ويرى إخوانه يأكلون القطط والكلاب والجرزان، في الوقت الذي تُصَادَر فيه ثروات بلاده وخيراتها إلى بلاد الأعداء في الشرق والغرب!

إنه يرى آلافاً، بلْ مئات الآلاف من أهله يموتون جوعاً، بينما تعيش في الترف والنعيم فئة من المُدلِّسين والمنافقين والمهرجين وأزواجهم وما كانوا يعبدون!

عندما يرى ويسمع كل هذه التناقضات الصارخة التي تحيط به وبمجتمعه .. ماذا ننتظر من هذا الشَّاعر الذي تحوَّل -رغماً عنه- إلى قنبلة موقوتة؟!

كيف .. كيف لا تثور عاطفته ولا ينبعث شعوره ولا يتميز من الغيظ .. فتتحول أشعاره إلى زجاجاتٍ حارقة وعبواتٍ ناسفة؟!

لقد استطاع الشَّاعر «محمد عبد القادر الفقي» أن يترجم هذه التناقضات الصارخة في قصيدةٍ مطولةٍ أسماها «أمجاد الماضي وتحديات الحاضر» إذْ يقول فيها:

إنّي لأنظـــر للـــماضي فيفزعنـــي ... حـالي، فـأصرخ: يـا بـؤسي ويـا نـدمي!
شـتّان بـين زمـانٍ كنـتُ فيـه بـلا ... نـــدّ ينافسـني في البـــأس والشـــمم
وبـين عصرٍ هـوام الأرض تنظـر لي ... فيـــه ازدراء كـــأني مطلـــق العـــدم
أرضي تضـجّ مـن الأرزاء صـارخة ... والنـاس في غفلـة، والـذئب في الغـنم
بـالأمس أنـدلسٍ قـد صـاح نائحهـا ... هُبّـوا مـن النـوم عـين البغـي لمْ تـنمِ
فـما أفـاقوا، وضـاع المُلْـك، وافترقـوا ... مـــا بـــين بـــاكٍ عـــلى مجـــدٍ ومنهـــزم
واليـوم أنـدلسٍ في القـدس ماثلـة ... فيـا لبـؤس الأُلى، والأنـف في القـتم

مـا قيمـة الشِّـعر إنْ لم يحـرّض عـلى الجهـاد واسـترداد الحقـوق الضـائعة، ويـؤازر المجاهـدين، ويُـواسي جرحـاهم، ويرثـي شـهداءهم -أوْ كـما يقـول الشَّـاعر الأردني د. مأمـون جـرار- في قصيدته الطويلة «شكوى من الشِّعْر»:

وسـائل عـن جديـد الشِّـعر قلـتُ لهـا ... حسـبي مـن الشِّـعْر أن الشّـعر يجفـوني
فـــلا رثـــاء لمـــوتى في مرابعنـــا ... عيـونهم لحيـاض المـوت تدعـوني
ولا بكـــاء عـــلى صرعـــى الجفـــاف ... نرى أشباحهم في عـذاب غـير ممنـون
ولا مـــديح لفجـــر المجـــد يصنعـــه ... مجاهـــدون لتبقـــى رايـــة الديـــن
عجبتُ يا صاحِ من شِعْرٍ يطاوعني ... يوم الرخـاء، وحين البـأس يعصيني!

نعم .. حُقَّ للشَّاعر المعاصر أن يبكي بكاء مراً على حال أُمته التي ضَـلَّت طريقهـا وسـط تـزاحم الأُمـم، فـأينما يتجـه بصره يـرى جراحـاً مـوَّارة، وجثثـاً ملقـاة، وهـزائم متواصلة، وانتكاسات لا يحدّها حد مـن القـدس إلى لبنـان، ومـن جبـال أفغانسـتان إلى أريتريا .. وإنْ شئتَ استمع إلى الشَّـاعر عبـد الرحمن العبيـد، في قصيدته: «حـوار مـع التاريخ»:

أبكـي عـلى أُمتـي ضـلّتْ مسـالكها ... وعنـدها الحـق يسري فـيض أنـوار
والقـدس في قيـدها نـادت: سـينقذني ... صـدق الجهـاد أتـى، لا وهـم ثـوّار

وجرح لبنان كمْ أذكته طائفة ... تناحرتْ بين خوّانٍ وسمسار
والنار فوق رُبَى الأفغان تضرمها ... جحافل أقبلت من أرض فجّار
وهجمة الشرق هولاكو يتيه بها ... وقيصر الغرب يُملي زيف كُفّار
والمسلمون هم صهري يُذلُّ فمن ... يلومني إنْ بكيتُ اليوم أصهاري؟!

مَنْ يلوم الشَّاعر إنْ بكى اليوم أهله وأصهاره؟!

بلْ من الواجب أن نشاركه البكاء ونشاطره أحزانه في هذا العصر الذي تطارده فيه الهموم، وتحاصره المصائب، وتلاحقه الهزائم في كل منازلة وفي كل ميدان، فشتان بين ماضٍ مجيد، وبين حاضرٍ تعيس .. فمن ذا يصدّق أننا كُنّا حُماة الأرض، ثم صرنا جراد الأرض – أوْ كما يقول الشَّاعر الفلسطيني **داود معلا**، في رائعته «الشجر المأسور»:

يا قدس لا تعتبي إنْ طار بي قلمي ... إلى خيالٍ توالت خلفه الصور
ماذا أرى وهمومي فيكِ تدفعني ... إلى الجنون وأين السمع والبصر
من ذا يصدّق أن الليل يكرهنا ... وأن شمس ضحانا كلها حفر
ونحن كنا حماة الأرض ما رفعت ... يد علينا العصا إلاَّ وننتصر
عقيدةٌ هي ماضينا وحاضرنا ... وساعدٌ هو فينا الصارم الذكر

الشَّاعر الحق الذي لا ينكفئ على ذاته، غافلاً أوْ لاهياً عما يدور من حوله، كذلك لا يليق به أبداً أن يتقوقع داخل أسوار مدينته أوْ دولته أوْ وطنه المحدود، بلْ من الواجب عليه أن يتفاعل مع سائر قضايا أُمته المترامية الأطراف من الهند وكشمير شرقاً إلى الأندلس غرباً، ومن الشيشان إلى الصومال، وعليه أن يولي اهتماماً كبيراً بالأقليات المسلمة في القارات الخمس .. ذلكم هو الشّاعر المؤمن برسالته في الحياة .. وهذا ما تمثله الشَّاعر الكبير «محمد التهامي» خير تمثيل، فتارة يكتب عن القدس والمسجد الأقصى، وتارة أخرى يكتب عن كابل وما يحدث للأفغان، وينتقل بعد

ذلك إلى العراق فيروي لنا من أخبارها .. وها هو ذا يردّ –متأسفاً– على (قائد جيش البوسنة) الذي كان قد طلب نجدة إسلامية إبان الأزمة التي حلَّتْ على وطنه «البوسنة والهرسك» يقول التهامي في قصيدته: وا معتصماه:

فَضَحْتنا عندما ضاقتْ بك السبلُ ... فصحْتَ بالأهل تدعوهم وتبتهلُ
يا صاحِ أهلكَ قد فاتوا مضاربهم ... وشُرِّدوا في سواد الليل وارتحلوا
خلّوا معاقلهم شمّاء خاوية ... وفي مهاوي بطون الأرض قد نزلوا
إنْ جئتَ تنشدهم يوماً لمكرمةٍ ... فليس في نجدةٍ من دارهم أملُ
لا يفزعون لنارٍ في دياركمُ ... لأنهم بدواهي نارهم شُغِلوا
فليس معتصمٌ في الدار ينجدكم ... فلم يعد في حِمَى أوطانهم بطلُ
وإنْ سمعتم صليلاً في مرابعنا ... فإننا في رحاب الدار نقتتلُ !
لم يبقَ في طوقنا جهدٌ نقدّمه ... فما نلاقي لدينا ليس يحتمل
لمْ يَبقَ إلاّ احتراق الشعب مثلكمُ ... لأنه معكم في النَّار يشتعل!

النار مشتعلة، والمذابح لا تتوقف من القدس حتى ضفاف الخليج، ومن الشرق إلى الغرب .. ولا خلاص إلاّ بالوحدة والتضامن الذي دعا إليه في كثير من قصائده شاعر الصعيد الجواني (محمد أمين الشيخ الهلالي) – يرحمه الله– ففي قصيدته «هموم مسلم» يقول:

من القدس حتى ضفاف الخليج ... وبين «رُبَا البوسنة» الحائرة
مضيتُ حزيناً ففي كل أرضٍ ... مذابح محمومة قاهرة
وتبدو المآذن .. كالنائحات ... تعاني من الطغمة الجائرة
ويمضي الشَّهيد على أرضها ... وينثر أشلاءه الطاهرة
دفاعاً عن الحق .. يعطي الدماء ... وقد باع دنياه بالآخرة
....

تعالوا إلى الله .. نبغي حِماه وتجمعنا وحدة قادره
نُلمْلِمُ أشتات شعب كريم ووعد من الله أن ينصره

إنَّ من المهام المنوطة بالشَّاعر، أن يكشف النقاب عن حكام الجور وعملاء الاستعمار المزروعين في بلادنا، وأن يواجههم علانية، ويرجمهم بقذائف الشعر الحارقة، ويحرض الشعوب على اقتلاعهم من الحُكم والإطاحة بهم .. وبالفعل، فقد تجرأ الشَّاعر (محمود خليل) في قصيدته «هي جولة في الحق» وخاطب «الديكتاتور» بشجاعة نادرة، قائلاً له:

أَوَ كنتَ تزعُمُ أنني قدْ أستكينُ .. وأنّ ظلمكَ مُرعبي
أَوَ كنتَ تحلمُ أنّ صرختكَ الجبانةَ قدْ تُعوّق مركبي
أَوَ ما شبعتَ من المذابح والدماء .. أَمَا مللتَ تعقبي

يستطرد -الشَّاعر محمود خليل- في خطابه إلى «الطاغية» شارحاً له كُنه رسالته في الحياة، مُستلهِماً منطق العلماء الأفذاذ في وقفتهم أمام الطغاة وحُكَّام الجور .. أوْ كأنه سُئلَ من أنتَ؟ وما تبغي أيها الشَّاعر؟ فأجاب:

فأنا وُلدتُ ببيتكَ المنهارِ أنْباني على التقوى أبي
وبأنني من جُندِ من عَنَتْ الوجوهُ لهُ: إليهِ تقرُّبي

لَمْ يكتفِ -الشَّاعر- بهذه الخطبة النارية التي ألقاها في وجه «الفرعون» بلْ راح يهدده ويتوعده، متمثلاً موقف سحرة فرعون، عندما قالوا للطاغية في شجاعة:

فيقول : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه].

فتمردي يا أرضُ فالفرعون جاء وجاء هامان الغبي
وتأهبي يا خيل مَنْ مَلَكَ الرقاب ويا فوارسُ فاركبي وتأهبي

وبسيف «خالد» حين يختصر ... الزمان وتحت راية مصعبِ

فتربَّصوا إنَّا هنا متربصون ... بعزمةٍ وتشببِ

وأنا ملكتُ السيفَ والقرآنَ فيكَ ... فكن بظلمك مُلْهبي

قبل أن ننهي الحديث عن (رسالة الشّعراء) فإنَّ من باب الإنصاف؛ أن نشهد للشُّعراء الإسلاميين بأنهم لمْ يألوا جهداً في أداء رسالتهم المنوطة بهم، بلْ تفاعلوا مع سائر قضايا أُمتهم، وأطلقوا قصائدهم كأنها خيول جامحة، تركض الأرض ركضاً، وتحرض الجماهير، وتبعث الأمل في نفوس المجاهدين .. فجادتْ قرائحهم بأشعار تقطر دماً، وقصائد مغسولة بالدمع! **فهناك قتال بـ«الكلاشينكوف» وصواريخ «القَسَّام» .. وهنا قتال بالكلمة!**